Ali Talib

Article

علي : اللغز والرمز

علي طالب: اللغز والرمز

وكنتُ إذا يمّمتُ أرضاً بعيدةً
سريتُ فكنتُ السرَّ والليلُ كاتمُه
المتنبي

في أعمال علي طالب ثمة حدث يدور في طقس غامض يتوخى السرّية والتكتم. ذلك هو جوهر الرؤية عنده، وتلك هي الخاصية التي حافظت عليها أعماله على مدى الحقب التي احتضنت مسيرته الفنية المتواصلة، بغض النظر عن الأمكنة التي أقام فيها، والتغيرات التي انعكست من جرائها على ملامح لوحته.

كان أول ما شاهدت من فن علي طالب، لوحة تمثل مشهدا طبيعيا من الذاكرة لغابة نخيل من جنوب العراق أو بستان (زيت على قماش) كان قد نفّذها في نهاية الستينات. فاستوقفتني لأسباب مختلفة، أدركت بعضها وغمض علي الكثير منها، وزجّت بي داخل أجواء من حلم ذي تفاصيل صغيرة تسبح في ضباب اللون. كان منبع هذه التفاصيل فكرة واحدة مجزئة إلى مجموعة صور, كل صورة منها وحدة قائمة بذاتها تعبر عن حالة من حالات الانعزال والسرية. أدركت حينذاك أنني أمام لعبة ملغزة تنبع من عوالم داخلية ما تكاد تفصح حتى تتكتم. ثم اكتشفت مع مرور الوقت، وتوثق معرفتي بأعماله في السنوات التالية، أن هذا التداخل ما بين الظاهر والخفي إنما هو سمة لصيقة بفنه ظلت تلازمه على مدى السنوات. ففي معرضه الشخصي الأخير الذي أقامه في عمان (قاعة الأورفه لي أيلول 2006)، عرض علي طالب من بين مجموعة أعماله ذات الطابع الدرامي، لوحة بحجم كبير موضوعها حياة جامدة، حملت في تصويرها البارع، وطبيعتها التأملية، ذلك الإحساس العميق بالعزلة والتوحد نابع من كل عنصر من عناصر تكوينها، فأعادت إليّ أجواء الحزن الشفاف لعمله الستيني ذاك.

لطالما كان التمرد على القيود، والنزوع نحو التغيير من السمات التي تطبع المبدعين العراقيين. وقد تجلت على نحو خاص بالفنانين التشكيليين والشعراء. غير أن هذا التمرد بلغ ذروة اندفاعه وتوقه للتجريب وتحريك الجمود الذي خيّم على الأجواء الفنية، بعد وفاة جواد سليم مع مطلع عام 1961 . فالاتجاهات الحديثة والإنعتاق من القيود والأشكال التقليدية, مع حرية البحث والسعي للنهوض بتركة جواد سليم الفنية والفكرية وتحقيق فن ينطلق من المحلي إلى العالمي، كانت جميعها عوامل تحريك ودفع للنهوض بالحركة الفنية ودفعها إلى الأمام. وكانت بغداد في حقبة الستين قد توافرت على تجارب فنية متنوعة المصادر، كما أوجدت فيها مناخاً ملائماً للبحث والتجريب. ومن المعلوم أن هذه الحقبة تعد نقطة تحول حاسمة، وشهدت أهم التغيرات الجذرية في العالم أينما كان.

في هذه المرحلة الغنية بالعطاء تبلورت الشخصية الفنية لعلي طالب (مواليد البصرة 1944). كان من أوائل الذين انتموا إلى أكاديمية الفنون الجميلة، وتخرج فيها عام 1966, يومها كانت بغداد ، مثل أسفنج قابل لامتصاص كل ما هو جديد. كانت بوادر التجريب والتجديد قد تجلت في إسهامه مع "جماعة المجددين" وهو لم يزل طالبا في الأكاديمية، إذ كان عمله الذي استخدم فيه تقنيات ومواد مختلفة، في طليعة أعمال المعرض الحدث آنذاك. لقد كان علي، الذي تتلمذ على يد فائق حسن، أستاذ الفن الحديث و رائده في العراق، قد تتلمذ أيضا على

يد فنانين أوربيين محدثين، عملوا لسنوات أساتذة زائرين في الأكاديمية.

وإذ انتقل إلى البصرة فيما بعد, فإن هذا الانتقال غذّى بعداً أخر من تكوينه الثقافي. كانت البصرة وأجواؤها الأدبية, وهي أجواء مشبعة بحب المعرفة والإبداع, كفيلة بأن تعمّق لدى علي طالب نزعته الفكرية التأملية وتدخل في صلب تجربته لتغذّي تمرده وتعمّق بحثه. وسرعان ما أوجد لنفسه أسلوباً فرض شخصيته على المشاهد، ووجّه الأنظار إلى عوالمه الخاصة. فالأجواء السياسية والاجتماعية والثقافية المحتدمة في العراق, على مدى الحقب, كانت تعمق لديه هذا الاتجاه التأملي المتفكر، وتدفعه لاستلهام أجواء أخرى لرؤيته التي ترمز إلى أحلام مضيّعة أو صعبة المنال. إنه أبداً في بحث، وهو أبداً في هروب، لأن ما يريد التوصل إليه هو في جوهره سرّ مقدّس, والتكتم عليه يضيف إلى ذلك الهروب هروباً أخر. إنه عمل مثير وباعث على التأمل كونه سرًا داخل لغز داخل أحجية.

أعمال علي طالب مقلقة حقا, بل محيرة بقدر ما هي مثيرة للجدل. إنها تتأرجح بين التشخيص والتجريد, تتضح مرة وتغمض مرات، فتترك المشاهد معلقاً بخيط من أمل للتوصل في توغله إلى الإمساك بملامح تظل أبدا هاربة. لعل وجود هذا الشيء الهارب من اللوحة ليس دخيلاً على فنه بقدر ما هو أصيل فيه, إنه جوهر كل موضوع يقترب منه. فمنذ أن كانت حواریاته السرية تدور بين أشخاص مقنّعين, غامضين أو متخفين, وهو يشير إلى أن ثمة عملية سرية تدور وراء هذا السطح أو فوقه أو دونه. ففي أعماله الأولى التي حدّدت ملامح شخصيته الفنية، أظهر علي طالب اهتماما خاصا بالأقنعة، أو الوجوه المقنّعة. وكاد أول معرض شخصي له في بغداد (المتحف الوطني للفن الحديث 1976) يقتصر على هذه المشاهد ذات الطابع الدرامي.

Copyright © 2011 - 2020
Ali Talib, All Rights
Reserved

Designed and Powered
by ENANA.COM